الحملات العربية الأندلسية

على فرنسا وايطاليا وسويسرة وجزر البحر المتوسط

محمد عبد العزيز عثمان

بعد ان فتح العرب المسلمون الاندلس وتوغلوا في داخلها بعد سنة 92هـ/711م ، استمروا في تقدمهم باتجاهين: الاتجاه الاول نحو المملكة الاسبانية الشمالية التي تكونت بعد تراجع فلول قليلة من الاسبان امام الجيوش الاسلامية الفاتحة ، وتحصنهم في الجبال الشمالية الشرقية في هضاب كانتبريا CANTABRA «نافار وبسكونيه» وفي هضاب اشتوريش «الاستورية» في الغرب(1) والتي بدات معركة الحياة والموت مع الدولة الاسلامية التي قامت في الجنوب والتي انتهت باخراج العرب المسلمين من الاندلس نهائيا عام 1492م .

والاتجاه الثاني الذي ساوت فيه الحملات العربية هو نحو جبال البرنية البرانس ثم نحو فرنسا فاواسط اوربا بعد ذلك . بدات حملات العرب المسلمين في وقت مبكر ، فالمقري يذكر ان بعوث طارق بن زياد وسراياه الى بلد الافرنجه ملكت مدينتي برشلونه واربونه وصخرة انيسون المنطقة على نهر الرون» وحصن لودون «لبون» وعلى وادي ردونه «نهر الرون»(2) الا ان العرب المسلمين تراجعوا لعدم تمكنهم من مواجهة حشود الافرنج الكثيفة(3) اما موسى بن نصير فقد فكر بعبور جبال البرانس الى بلاد غاله «فرنسا الحاليه» لتحقيق طموح العرب في الوصول الى القسطنطينيه من جهة الغرب بعدما فشلوا في الوصول اليها وفتحها من الشرق . اورد المقري ايضا «ان موسى بن نصير اراد ان يخترق مابقي عليه من بلد الافرنجه ويقتحم الارض الكبيرة ـ فرنسا والمناطق المجاورة من ايطاليا ـ حتى يصل بالناس الى الشام مؤملا ان يتخذ مخترقه بتلك الارض طريقا مهيعا ـ واضحا ـ يسلكه اهل الاندلس في مسيرهم ومجيئهم من الشرق واليه على البر لا يسركون بحرا»(4) على ان فكرته هذه لم تتحقق لا في عهده ولا في عهد من جاء بعده من الولاة ذلك ان فترة الولاة كانت فترة قلقة في تاريخ الاندلس ، مليئة بالفتن والحروب الاهلية على ان هذا لم يمنع العرب من عبور البرانس والتقدم باتجاه فرنسا حتى انهم وصلوا الى حدود نهر اللوار حيث وقعت المعركة الشهيرة في بور ـ بواتيه والتي يسميها العربي عبدالرحمن الغافقي . لقد بالغت الرواية الاوربية في اهمية معركة بور ـ بواتيه وبمقدرة قائد الافرنج (شارل مارتل) او المطرقة واعتبرت الرواية الاوربية هذه المعركة معركة فاصلة في التاريخ الاوربي فالمؤرخ جيبون يذكر «ان العرب لو تحقق لهم الانتصار في تلك المعركة لانتشرت المساجد في باريس ولندن بدلا من الكاتدرائيات .. ولكان القرآن يتلى ويفسر في اكسفورد وغيره من المراكز العلمية»(5) كما عبر عن نفس المعنى غيره من المؤرخين الاوربيين . في حين نلاحظ ان المؤرخين المسلمين لم يعطوها تلك الاهمية التي اعطاها اياها المؤرخون الاوربيون فذكروها بشكل عادي واعتبروها معركة من المعارك الكثيرة التي خاضها العرب ، لابل ان معركة بلاط الشهداء كانت حافزا للعرب المسلمين على مواصلة الفتح باتجاه اوربا عبر الارض الكبيرة . فوالي الاندلس عبدالملك بن قطن استمر بفتوحاته وكذلك عقبة بن الحجاج السلولي الذي اشتهر بالشجاعة وحب الجهاد نجح في تثبيت اقدام العرب في مقاطعة بروفانس بجنوب فرنسا ـ واستولى على كثير من المدن في ناحية الدوفينية ، ثم وصل العرب الى ليون ثم الى حدود بيدمونت في شمال ايطاليا . على ان خسارة العرب لمعركة بلاط الشهداء جعلتهم اكثر حذرا ، فبدات غزواتهم تاخذ شكلا جديدا ، فلم تعد تاخذ شكل الجيوش المنظمة الكثيفة وانما اخذت شكل حملات للجهاد تقوم بها مجموعة من المجاهدين

او جيوش صغيرة العدد يسيرها امير من الامراء او طبقة من الحكماء الاندلسيين باتجاه فرنسا وايطاليا وسويسرة ، ويتخذ بعض هؤلاء المغامرين من بعض المناطق الحصينة قواعد للانطلاق منها مدينة اربونه ودوفيني ولهذا كثيرا ما تاخذ سيطرة العرب على منطقة من المناطق شكل مد وجزر ، بمعنى ان العرب المسلمين يسيطرون على منطقة من المناطق ولكنهم لايستطيعون البقاء فيها طويلا لعدم تمكنهم من الصمود امام الهجمات الكثيفة التي يقوم بها الافرنج ، فينحسرون عنها ،

ويعودون اليها متى سنحت لهم الفرصة ، وهذا ما حصل لمدينة اربونة ذاتها فقد سيطر عليها العرب مرات متعددة ولكنهم كانوا ينسحبون منها بعد حين . لقد اثبتت غزوات العرب هذه على الرغم من محدوديتها وقلة المؤونة والمدد ومشقة الطريق على علو همة العرب وبسالتهم وقوة عزيمتهم وامكانيتهم الفائقة في مقارعة الصعاب والوصول الى مناطق بعيدة في اوربا ، فقد وصلوا بحملاتهم في كل من فرنسا وايطاليا وسويسرة من منطقة تمتد من مدينة نيس الفرنسية حتى بحيرة كونستانس الواقعة على الحدود السويسرية الالمانية والنمساوية ومن نهر الرون حتى جبال الجورا على حدود سويسرة والى لمباردية .

استعراض للحملات العربية الاندلسية في ظل الحكم الاموي :

شهدت الفترة التي اعقبت حكم الولاة ومجيء عبدالرحمن الداخل الى الاندلس وتأسيسه الدولة الاموية طورا جديدا بتقدم العرب نحو فرنسا ومنها الى اوربا ، وذلك ان بيبين القصير الذي تولى الحكم بعد وفاة ابيه شارل مارتل ،ومن بعده ابنه شارلمان(6) عملا على اجلاء العرب المسلمين عن المناطق التي كانت تحت ايديهم ، مستفيدين من الصراعات الداخلية في الاندلس من جهة ومحاولة التعاون مع الدولة العباسية الراغبة في مد نفوذها وسيادتها على الاندلس من جهة اخرى . لقد حاول العباسيون في زمن المنصور السيطرة على الاندلس ، فقدموا المساعدات للعلاء بن المغيث من زعماء مدينة باجة الاندلسية ، فدعا لبني العباس ورفع السواد شعارهم واعلن انه قد عين اميرا على الاندلس من قبل المنصور سنة 146هـ(7) وحشد الحشود مما دفع بالامير عبدالرحمن الى الخروج من قرطبة بجيش كبير لمجابهة العلاء ، وتلاقى الفريقان قرب مدينة قرمونة ونشبت بينهما معارك عديدة وكانت فيها نهاية العلاء بن المغيث الذي قتل مع مجموعة من اتباعه وحملت رؤوسهم والقيت سرا امام سرادق المنصور في مكة حيث كان يؤدي فريضة الحج(8) فلم يعد العباسيون بعد ذلك الى التفكير في محاولة السيطرة على الاندلس ، وروي عن المنصور انه حمد الله على ان جعل بينه وبين هذا الشيطان (عبدالرحمن الداخل) البحر . اما شارلمان فانه حاول الاستفادة من الصراع الداخلي في الاندلس واتصال اثنين من الزعماء الطامعين في حكم الاندلس به . وهما سليمان بن يقظان الكلبي (الاعرابي) والي مدينة برشلونة ، والحسين بن يحيى الانصاري والي سرقسطة ، لمخالفته ضد حكومة قرطبة . الا ان شارلمان كانت له خططه ومراميه البعيدة والتي تتلخص في السيطرة على الشمال الاسباني وانهاء النفوذ العربي في الاندلس بعد ذلك . ولذلك جاء بنفسه على راس جيش كبير مقسم الى قسمين كان هو على راس احد هذين القسمين ، فعبر جبال البرانس من الناحية الغربية من ممر يعرف باسم « ممر رونسفال» او باب الشزري كما تسميه الرواية الاسلامية متجها الى سرقسطه على ضفاف نهر ابرو ، وكان يظن ان اهالي مدينة سرقسطه سيرحبون به ، ولكن ما ان وصل المدينة حتى وجدها قد اغلقت ابواب اسوارها وتحصنت ضد هجوم شارلمان ،وكان على راس المدافعين عن المدينة واليها الحسين بن يحيى الانصاري . ولا يعرف السبب الذي دفع بوالي المدينة الى تغيير سياسته ، فربما كان ناقما على سليمان الاعرابي والي مدينة برشلونة لاتخاذه موقف الزعامة والصدارة فقد كان بمعية شارلمان في غزوه للمدينة . او انه خشي عاقبة التورط في حلف مع الافرنج فعدل عن موقفه في آخر لحظة(9) او ربما كان يخشى النقمة الشعبية عليه بسبب تعاونه مع الافرنج اعداء الدولة الاسلامية . ولما يئس شارلمان من فتح مدينة سرقسطة قرر رفع الحصار عنها خاصة بعد ان بلغه خبر ثورة السكسون في بلاده من جديد. فقفل راجعا الى بلاده عابرا جبال البرانس من نفس المكان الذي جاء منه (ممر رونسفال) فتعرضت مؤخرة جيشه في خلال عبوره الممر الى هجمات سكان الممرات الجبلية من البشكنس ـ النافار ـ انتقاما لما انزله جيش شارلمان بعاصمتهم بنبلونه من العبث والتخريب ، وكذلك تعرض الجيش لهجمات المسلمين المقتفين لأثر الجيش بعد انسحابه وكانت الهجمات الاسلامية بقيادة شخصين يقال لهما عيشون ومطروح(10) وقتل في هذه الهجمات قائد شارلمان رولان الذي نظمت باسمه الانشودة الشهيرة (انشودة رولان) وعندما شعر شارلمان بعدم استطاعته تحقيق خطته في السطرة على الاندلس ، او التدخل في الشؤون الداخلية لصالحه عرض على عبدالرحمن الداخل المسالمة والمصاهرة ،فوافق عبدالرحمن على السلم واعتذر عن المصاهرة لكبر سنه(11) . انصرف عبدالرحمن بعد ذلك الى اعادة وحدة الاندلس بالقضاء على الثورات المحلية ، ولذلك لم يحصل تقدم يذكر للعرب المسلمين باتجاه فرنسا لانشغال الدولة في تثبيت سلطتها المركزية . في عهد هشام بن عبدالرحمن (172ـ180هـ) تجددت الحملات العربية ذلك ان هشام دعا الى الجهاد وجمع الاموال في سبيل ذلك ، وقد جهز جيشا كبيرا عهد بقيادته الى احد قادته «عبدالملك بن مغيث»الذي عبر جبال البرانس وهاجم اقليم سبستمانية ـ منطقة ساحلية تطل على البحر المتوسط جنوب فرنسا ـ واسترد مدينة (جيرونه) واعاد سيطرة العرب على نربونه او اربونه عاصمة الاقليم التي كانت لها في نفوس المسلمين مكانة سامية لانها بمثابة ركيزة لانطلاق هجماتهم باتجاه اواسط اوربا وقد اشرنا سابقا الى ان طارق بن زياد ارسل اليها السرايا ، كما حاول عبدالعزيز بن موسى بن نصير السيطرة عليها سنة 714م عندما خرج بحملة اليها حتى وصل الى المناطق القريبة من المدينة(12) اما السمح الخولاني فقد تمكن من السيطرة عليها بشكل فعلي وكامل سنة 719م ونزحت اليها بعد ذلك اسر عربية لتعمرها فغرست حولها لاول مرة اشجار الرمان والتين والخرنوب وما زال احد شوارعها يحمل اسم القائد العربي السمح الخولاني محرفا « زاما » Zama (13) . وقد حاول شيلدبراند شقيق شارل مارتل سنة 737م وبيبين القصير ابن شارل مارتل سنة 752م استعادة المدينة الا انهما اخفقا في البداية ، واستمر حصار بيبين القصير للمدينة . كما حاول عبدالرحمن الداخل من جانبه رفع الحصار عنها فارسل جيشا تحت قيادة امير اسمه سليمان لم يتمكن من رفع الحصار لانه هزم من قبل الافرنج قبل وصوله الى المدينة ، ولم يتمكن بيبين القصير من دخول المدينة المحصنة الا بعد ان دبر مؤامرة اتفق فيها مع اهالي المدينة على ان يهاجموا الحامية الاسلامية المدافعة عنها على حين غفلة ، مقابل ان يكونوا ـ اي اهالي المدينة ـ في المستقبل احرارا بمدينتهم وتكون ادارة امورهم بحسب اعراف القوط ، وهكذا انقض اهالي نربونه على الحامية الاسلامية وقضوا على جميع افرادها وفتحوا ابواب المدينة وكان ذلك في سنة 759م(14) وابقى ملك الافرنج جيشا كبيرا لحماية المدينة وفي عهد هشام وكما قدمنا اراد ان يثار لشهداء

العرب المسلمين فاستعاد نربونه سنة 793م واوصى قائد الجيش الاسلامي بان يحمل اسرى الافرنج تراب اسوار المدينة ـ الذي تخضب بدم الشهداء المدافعين عنها ـ واحجارها على ظهورهم الى قرطبة ، حيث امر ببناء مسجد جديد قدام باب الجنان(15) ليكون رمزا للانتصار الذي حققه العرب على الافرنج .

وفي عهد الحكم الربضي (180هـ ـ 206هـ) غزت جماعات بحرية اندلسية سنة 191هـ/806م جزيرة كورسيكا في البحر المتوسط ، وغنمت غنائم كثيرة ، ثم اعاد البحارة الاندلسيون بعد عامين غزو شواطىء كورسيكا وسرديثيا من جديد ، ثم توالت غزواتهم بعد ذلك ففي سنة 838م خرج اسطول اسلامي من ثغر طركونه الاندلسي متجها الى مياه فرنسا الجنوبية وهاجم ثغر مرسيليا(16) وفي سنة 840م اضطربت احوال مملكة الافرنج على عهد لويس التقي بن شارلمان الذي كان ضعيفا عاجزا ، فانتهز البحارة المجاهدون هذه الفرصة وشنوا حملاتهم على ولاية البروفانس على مصب نهر الرون وهاجموا مدينة (ارل) وخربوها . وقد اشتدت غزوات وغارات العرب المسلمين على الموانىء الفرنسية ثم الايطالية في عهد عبدالرحمن بن الحكم (الاوسط) 206ـ238هـ ففي سنة 234هـ/848م بعث عبدالرحمن بقوة بحرية كبيرة الى جزيرتي ميورقه ومنورقه ـ من جزر البليار ـ لمعاقبة اهلها لتعرضهم لسفن العرب المسلمين . واخضعت الجزيرتان وفرض على اهلهما الجزية والولاء(17) . وفي اواخر عهد عبدالرحمن بن الحكم في سنة 850م عبر موسى بن موسى بن قسي زعيم الثغر الاعلى الاندلسي(18) جبال البرانس وغزا اقليم سبتمانيا واثخن في نواحيه مما اضطر شارل الاصلع ملك فرنسا الى مهادنته وعقد الصلح معه . ومما تجدر الاشارة اليه ان ابن قسي هذا كان يتبع امير الاندلس اسميا فقط .

في اواخر القرن التاسع وبداية القرن العاشر الميلادي بدات غزوات العرب تأخذ اسلوبا جديدا هو اسلوب حملات الجهاد والمغامرة المدعومة من قبل امراء او خلفاء الاندلس فقط . اي ان حكام الاندلس لم يعودوا الى تجهيز الجيوش المنظمة لشعورهم بعدم جدوى مثل هذه الحملات في السيطرة على تلك الاصقاع النائية ، اضافة الى نشاط المملكة الاسبانية الشمالية ضد الدولة الاسلامية وانصراف المسلمين الى درء الخطر المحدق بهم في داخل الاندلس ذاتها .

كان المجاهدون المغامرون ينطلقون بحملات الى مناطق بعيدة عن الاندلس وينشئون القلاع والحصون ويتخذونها قواعد للاغارة على المناطق المجاورة . وقد كان الاسلوب الذي يتبعونه في القتال هو اسلوب الكر والفر ، فينطلقون من قلاعهم ثم يعودون اليها متى تعرضوا للخطر .

وتتركز حصون العرب وقواعدهم على سواحل فرنسا وخاصة في جزيرة كامرج عند مصب نهر الرون(19) على ان اهم قاعدة اسلامية انشأها المسلمون هي حصن (فراكسنيتم) Fraxinetum او «جبل القلال» كما يسميه المسلمون . ذلك انه في سنة 890م تمكنت مجموعة اندلسية مغامرة لم يزد عددها عن العشرين بحارا ، ثم انضم اليهم عدد كبير من الاندلس وشمال افريقيا بعد تأسيس هذه القاعدة على ساحل البروفانس مكان القرية الحاضرة التي يقال لها الآن «غارد ـ فريسنيه» (20) ومن حصن فراكسنيتم تعرض اقليم البروفانس وحوض الرون الادنى لغزوات المسلمين وغاراتهم مدة تزيد على الثمانين عاما(21) ، واستطاع العرب المسلمون بفضل هذه القواعد والحصون من التوغل شرقا وشمالا ، فاحتلوا مودان Modan ومضيق تيند Tende وقاب Gap وامبرين Empran وبرسلونات و ايز Eze قرب نيس ثم عبروا حدود جبال الالب باتجاه ايطاليا واحتلوا منطقة وادي اوسست(22) فقطعوا بذلك ممرات الالب باتجاه الجنوب وفرضوا الضرائب على الحجاج الذاهبين الى روما ، ولم يتمكن امراء تلك المنطقة من القضاء على حصن فراكسنيتم الا بعد مشقة بالغة . لقد اجتاز العرب المسلمون مقاطعة الدوفنيه الى ايطاليا عبر جبل مون سني Montcenis حتى انتهوا الى دير نوفاليز على حدود بيبمونت في وادي سوزه سنة 906م وفي سنة 908م نزل بعض البحارة المسلمين في سواحل لنجدوق وشرعوا يشنون الهجمات على مونفرات Monfarrat ، فقد روى مؤرخ دير نوفاليز ان احد اعمامه وهو من قواد الجيش كان ذاهبا من (موبين) الى (فارسل) مع مجموعة من الجند فداهمته جماعة عربية في احدى الممرات قرب البلدة فتقاتل الفريقان ووقع بعض الاسرى بيد العرب المسلمين فاخلوا سبيل من لم يستطع دفع الفدية واستبقوا القادرين على دفعها(23) كما وصل العرب الى حدود ليجوريه « على خليج جنوة » وذكر المؤرخ الالماني ليونبراد وهو معاصر لتلك الفترة، ان العرب المسلمين اغاروا على مدينة (آكي) احدى مدن مونتفرات المشهورة بحماماتها المعدنية على مقربة من تورينو(24) ثم تقدم العرب نحو سويسرة فدخلوا وادي فاليه وسيطروا على دير جون في سنة 939م . كما وصلوا الى غريزون Grisons ودخلوا جنيف، وقد تم لهم هذا الاكتساح المظفر في مدة عشر سنين(25) واصبح العرب يجولون في جميع انحاء سويسرة بلا معارض وكانهم في ديارهم ، والفوا سكنى الجبال والسير في الادغال ، حتى قال احد الكتاب المعاصرين «انهم صاروا اشبه بالمعزى في صفة اقدامهم وسهولة سيرهم في حروف الجبال»(26).

على انه منذ منتصف القرن العاشر الميلادي ومنذ مجيء الحكم الثاني الى حكم الاندلس (350ـ365هـ/961ـ976م) الذي كان ميالا الى الدعة والهدوء وحب القراءة وجمع الكتب بدا النفوذ العربي في المناطق التي استولوا عليها بالتراجع بسبب عدم تمكن هؤلاء المغامرين المجاهدين من الصمود طويلا امام الهجمات العنيفة التي بدا يشنها عليهم امراء وسكان تلك المناطق . وبخاصة ان الدعم المادي والبشري الاندلسي انقطع عنهم بشكل شبه نهائي ، وهكذا اخرج العرب المسلمون من معاقلهم الواحد بعد الآخر ففي سنة 960م اخرجوا من معاقلهم في جبل سان برنار بعد ان ابدوا منتهى البسالة في الدفاع عن مواقعهم ، وفي سنة 965م اخرج العرب المسلمون من مدينة جرينوبل ثم لحقت بها دوفيني ، ثم اعلن امبراطور المانيا اوتو سنة 968م انه سيتولى طرد المسلمين من بروفانس بعد ان حاول ان يتوسط لدى عبدالرحمن الناصر لايقاف هجمات العرب المسلمين المتواجدين في حصن فراكسنيتم ، الا ان الخليفة عبدالرحمن الناصر اعتذر له وبين له بانه ليست له اية سلطة على العرب المتواجدين في تلك المناطق(27) .

التف سكان منطقة دوفنيه وحل زعيم لهم يدعى «جيوم» الذي مد نفوذه الى بروفانس وصمم على اخراج العرب المسلمين من معاقلهم وحصونهم ، وخاصة حصن فراكسنيتم (جبل القلال)

مركز هذه الحصون واهمها واكثرها تحصينا ، وفعلا تمكن جيوم من السيطرة على الحصن عام 795م بعد ان خاض مع العرب معركة يقال لها «تورتور» ابدى فيها العرب منتهى البسالة والشجاعة والاقدام .

أما المعاقل الاخرى التي كانت مبعثرة بين ممرات الالب مثل حصن (فراشنديلوم) Fraschcndellum المعروف في الجغرافية الحديثةباسم «فراسنيتو» الواقع في لمبارديا على مقربة من نهو البو(28) فقد صفيت بأجمعها في نهاية القرن العاشر الميلادي ، وطورد من بقي من العرب وأسر عدد كبير منهم وارتد بعضهم عن الاسلام الى النصرانية بتأثير التعصب الديني والاضطهاد الذي مارسه ضدهم سكان البلاد .

على ان العرب المسلمين لم يتوقفوا نهائيا بعد القرن العاشر الميلادي عن غاراتهم على المياه الفرنسية ، لكن هذه الغارات كانت محدودة الاهمية والاثر ففي سنة 1003م نزل بعض المسلمين الاندلسيين في ارض انتيب او عين طيب Antibs وفي سنة 1019 نزلت حملة اسلامية اخرى الى مدينة اربونه وحاولت الاستيلاء عليها من جديد ولكنها باءت بالفشل حيث كشف سكان المدينة هوية المهاجمين المتنكرين واسروا قسما منهم وفر القسم الآخر ، وفي سنة 1047 نزل مسلحون اندلسيون في جزيرة لارين Lerins (29) وقبل هذه الفترة وفي سنة 405هـ/1014م افتتح مجاهد العامري احد ملوك الطوائف جزيرة سردانية باساطيله ولكن النصارى استرجعوا الجزيرة بعد وقت قصير(30) ولبث مجاهد العامري الذي يسميه الافرنج موجيت Mujet مرهوب الجانب واسمه يلقي الرعب في نفوس سكان جزر كورسيكا وسردانيه وبيزه وجنوه الى ان مات سنة 1044م(31) وبقيت غارات العرب المسلمين على سواحل فرنسا تتوالى ولا تغيب طويلا الى ان اشتدت قوة فرنسا البحرية فقد كانت مدينة ماملون مقصدا لغزوات المسلمين حتى اطلق عليها اسم ميناء «سارازين» وهو الاسم الذي كان يطلقه الافرنج على العرب ويعني (القراصنة او الغزاة) .

الآثار التي تركها العرب

والآن وبعد استعراضنا لبعض الغزوات والحملات العربية الاسلامية في قارة اوربا ، يحق لنا ان نتساءل عن الآثار المادية او العلمية والادبية التي تركها العرب بعد رحيلهم عن المناطق التي سيطروا عليها زمنا غير يسير وبخاصة القلاع والحصون التي بنوها واتخذوها مراكز لانطلاق غاراتهم على المناطق المحيطة بهذه القلاع .

لقد كان وراء الغزوات العربية الاسلامية دوافع متعددة تاتي في مقدمتها فكرة الجهاد في سبيل الله ونشر دينه في اصقاع اوربا ، ومنها ما يتعلق بحب المغامرة او الهروب من حيف يقع على جماعة معينة ، وهذا ينطبق على الجماعة التي استوطنت وتحصنت في «فراكسنيتم» (32) ، وليس صحيحاً ان الدافع الوحيد من وراء حملات العرب هو طلب الغنائم والسبي او اللصوصية والقرصنة كما تحاول الروايات الاوربية ان تؤكده ، معتمدة في ذلك على الروايات الكنسية المعاصرة لتلك الفترة والتي تتصف بروح العداء والخصومة للعرب المسلمين وبعدها عن الحقيقة .

ان العرب تركوا من الآثار ذات الطابع المميز بهم في المناطق التي حلوا بها فبنوا القلاع والحصون وحفروا الآبار وشقوا الترع ونظموا الزراعة ، وادخلوا محاصيل جديدة مثل الرمان والتين والخرنوب في مدينة نربونه ، وحملوا فسائل النخيل من اسبانيا وشمال افريقيا الى شواطىء الريفيرا ، كما استثمروا اشجار البلوط في مقاطعة بروفانس وما زالت هناك غابة منه يقال لها غابة المغاربة ، كما استخرج العرب القطران من اشجار المنطقة لطلاء المراكب والسفن ، والى الآن يستعمل اهالي بروفانس الاسم العربي للقطران فيقولون Qutran (33) وقد كان للعرب فضل كبير في تحسين نسل الخيول ، وماتزال في جنوب فرنسا جهات تشتهر بجمال خيولها واصالتها ولا سيما في كارماج في مقاطعة لاند من اعمال غسقونيه(34)، كما ادخل العرب صناعة السجاد الى بعض المناطق التي استوطنوها لابل ان الدم العربي اختلط بدم السكان المحليين نتيجة لزواج المسلمين من نساء تلك المناطق ، او تخلف من بقي من العرب بعد ان نظمت حملات اخراجهم من قبل الامراء والسكان المحليين ، واندماج هؤلاء العرب بالسكان .

اما في مجال البناء والعمارة فلا تزال بعض الآثار شاخصة على الرغم من تقادم الزمن عليها وازالة القسم الاكبر منها بفعل التعصب الديني الذي رافق اخراج العرب المسلمين من المناطق التي حلوا فيها ففي مدينة نربونه التي استوطن فيها العرب زمنا طويلا لاتزال آثار المسجد الجامع باقية تصارع الزمن وتقلبات الدهر ، ففي الناحية الغربية يشاهد الزائر المحراب تحيط به الاقواس والاروقة والبئر والساقية التي كان يستعملها المصلون للوضوء . كما توجد حول المسجد المقبرة الاسلامية ، وعند اجراء الحفريات عثر على قطع زجاجية وزخرفية مطلية وقطع من الزليج لتغطية القاعات ، وكل هذه محفوظة بمتحف سيفر بضاحية باريس(35) . ومن الآثار الاخرى التي تركها العرب النقود التي استعملوها في معاملاتهم ففي بربينيان Perpignan عثروا على دنانير عربية بعضها مكتوب عليها بالحروف العربية واخرى بالحروف اللاتينية مؤرخة في سنة 744م وعلى دراهم مؤرخة في سنة 762م وسنة 774م مما يوكد ان العرب المسلمين تعلموا لغة سكان البلاد واستعملوها . كما وجدت في تور سيوف ودروع من مخلفات معركة بلاط الشهداء(36) ووجدت في مدينة مارتج عند مصب نهر الرون التي فيها ابنية يقال انها من ايام العرب آثار اوراق قديمة تخص العرب(37).

اما في المجالات العلمية والادبية والاجتماعية فلم يكن تأثير العرب المسلمين كبيرا لانشغالهم في الامور العسكرية والتحصينات للدفاع عن انفسهم في مناطق كانوا محاطين فيها بالاعداء من كل جانب ومع هذا نلاحظ تأثير العرب باقيا في عادات وتقاليد السكان ، ففي جهات بروفانس هناك بعض التقاليد الخاصة بالرقص ترجع الى اصل عربي كما تأثر اسلوب الشعر الفرنسي المسمى بـ « التروبادور » Troubadour (38) بشعر الزجل العربي الاندلسي . كما انتقلت تقاليد الفروسية العربية ونظمها الى اوربا في العصور الوسطى التي ازدهر خلالها نظام الاقطاع المعتمد على قيم الفروسية ونظمها .

الهوامش :

(1) محمد عبدالله عنان – دولة الاسلام في الاندلس ط3 – القاهرة 1960 ص 205 .

(2) (3) احمد بن محمد المقري – نفح الطيب في غصن الاندلس الرطيب – تحقيق محمد محي الدين عبدالحميد – بيروت ط1 ص 256 .

(4) المقري – نفس المصدر جـ1 ص 257 .

(5) علي حسين الخربوطلي – العرب في اوربا – سلسلة المكتبة الثقافية – العدد 143 ، القاهرة 1965 ص 24 .

(6) بعد وفاة شارل مارتل سنة 741م تولى حكم فرنسا ابنه بيبين القصير (741–768م) ثم من بعده ابنه شارلمان (768م–814م) ثم من بعده ابنه لويس التقي (814–840) ثم من بعده ابنه شارل الاصلع (840–877م) ثم لويس الالكن (877م–879م) وبعد وفاة لويس هذا قسمت فرنسا بين أولاده الثلاثة :

لويس الثالث	لويس كارلومان	شارل البسيط
879م–882م	879م–884م	898م–922م

خليل السامرائي «الثغر الاعلى الاندلسي» بغداد 1976 ص 229 .

(7) ابن عذاري – البيان المغرب في اخبار المغرب جـ 2 (اخبار الاندلس) بيروت ، 1950 ، ص 78 .

(8) ابن القوطية القرطبي – تاريخ افتتاح الاندلس – تحقيق عبدالله انيس الطباع ، بيروت 1957 ص 58 .

(9) عنان – المصدر السابق ص 173 .

(10) عنان – المصدر السابق ص 176 .

(11) المقري – المصدر السابق جـ1 ص 310 .

(12–13) شكيب ارسلان – تاريخ غزوات العرب في فرنسا وسويسرا وايطاليا وجزر البحر المتوسط ، القاهرة 1352هـ/1933م م وهو يعتمد على كتاب المستشرق الفرنسي رينو ص 66 .

(14) ارسلان – نفس المصدر ص 113 .

(15) المقري – نفس المصدر جـ1 ص 316 .

(16) يقصد بالثغور مدن الحدود ، واستعمل هذا الاصطلاح لاول مرة على مدن الحدود الاسلامية ، المواجهة للدولة البيزنطية في بلاد الشام ، ثم عمم هذا الاصطلاح على كل المدن الحدودية للدولة الاسلامية ، واحيانا يطلق على هذه المدن (الربط) .

(17) يذكر ابن خلدون «ان المسلمين كانوا لعهد الدولة الاسلامية قد غلبوا على البحر المتوسط من جميع جوانبه وعظمت صولتهم وسلطانهم فيه ، فلم يكن للامم النصرانية قبل باساطيلهم بشيء في جوانبه ، وملكوا سائر الجزائر المنقطعة عن السواحل فيه مثل ميورقه ، ومنورقة وبابسه وسردانيه وصقليه ومالطه واقريطش – كريت – وقبرص وسائر ممالك الروم والافرنج» .
ابن خلدون – المقدمة ، مطابع الاوفسيت – مكتبة المثنى بغداد ص254.
فيما يتعلق بسيطرة عرب الاندلس على جزيرة كريت ذكرت قصة ذلك في مقال في مجلة آفاق عربية «ثورة الربض ثورة شعبية في تاريخ الاندلس» العدد 3 تشرين الثاني 1978 ص 79 .

(18) يشمل الثغر الاعلى في الجغرافية الاندلسية ولاية الحدود الشمالية الاسبانية ، وهي ولاية سرقسطه واعمالها وهي ارغون الحالية . خليل ابراهيم صالح – المصدر السابق ص 39 .

(19) الخربوطلي – المصدر السابق ص 59 .

(20) محمد عبدالعزيز عثمان – فراكسنيتم «جبل القلال» مجلة التبراس العدد 13 اذار 1977 ص 41 .

(21) الخربوطلي – المصدر السابق ص 59 .

(22) نورالدين بن محمود – فتح العرب فرنسا وماوراء جبال البرانس – مجلة العربي الكويتية ، العدد 122 كانون الثاني 1969 ص 80.

(23–24) ارسلان – نفس المصدر ص (170–171) .

(25) مجلة العربي – ص 78 .

(26) ارسلان – نفس المصدر السابق ص 176 .

(27) مجلة التبراس – العدد 13 ص 48 .

(28) عنان – المصدر السابق ص 429 . هناك من يقول بان هذا الحصن هو حصن فراكسنيتم نفسه .

(29) ارسلان ، نفس المصدر السابق ص 202 .

(30) ابن خلدون – المقدمة ص 254 .

(31) ارسلان – نفس المصدر السابق ص 202 .

(32) مجلة العربي – العدد 122 ص 79 .

(33) ارسلان – المصدر السابق ص 238 .

(34) عنان – المصدر السابق ص 436 .

(35) مجلة العربي – العدد 122 ص 81 .

(36) عنان – المصدر السابق ص 435 .

(37) ارسلان – نفس المصدر السابق ص 202 .

(38) التروبادور : اصطلاح اطلق على المنشدين الجوالين الذين ظهروا في اسبانيا خلال القرن العاشر الميلادي ، وكانت اناشيدهم ترجع في اصلها الى الزجل العربي ، ثم اخذوا يطوفون باتجاه اوربا ينشدون الناس منظوماتهم هذه .
محمد مفيد الشوباشي – العرب والحضارة الاوربية . سلسلة المكتبة الثقافية – العدد 43 آب 1961 ص 104 .